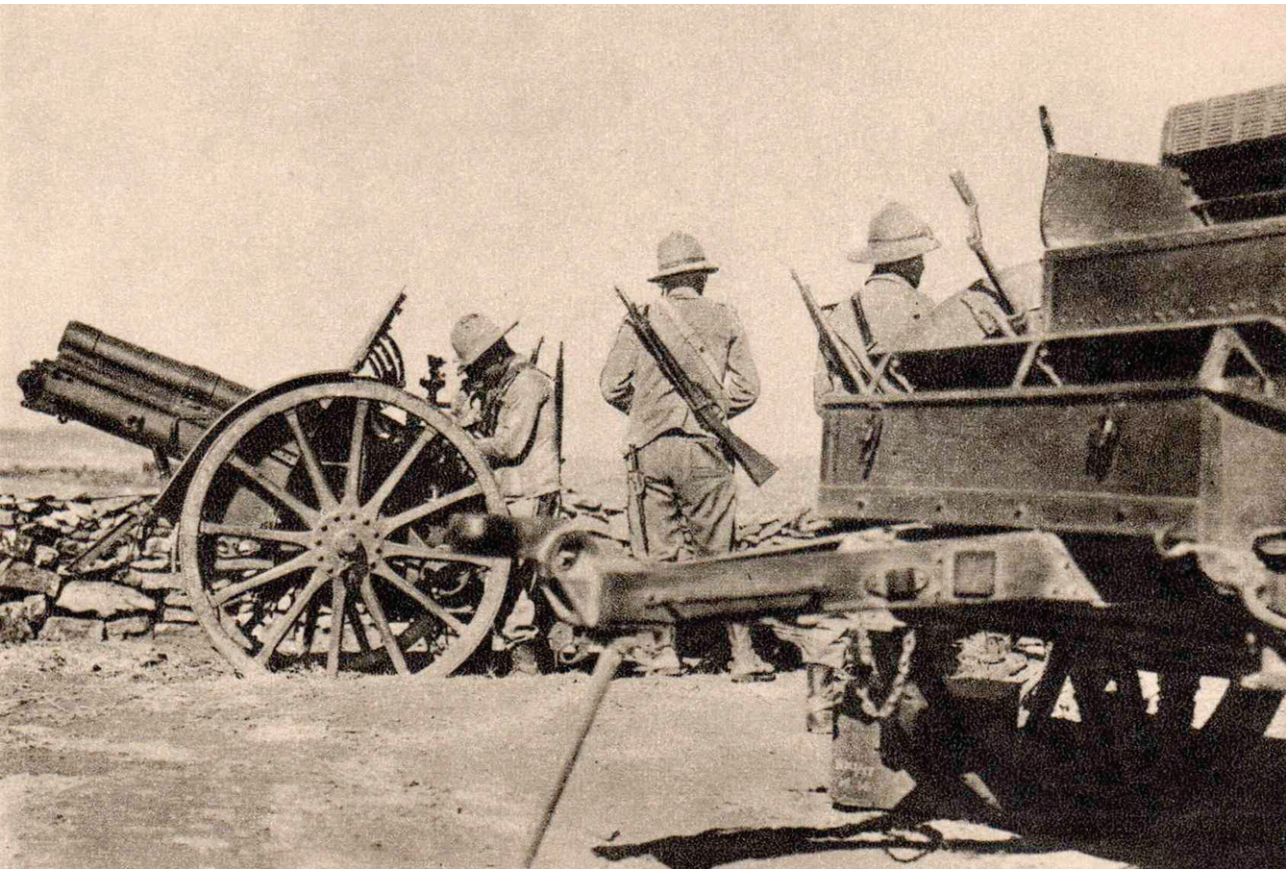

الاستعمار الايطالي في إفريقيا

الأسباب - الأثار - النتائج

أ.د. فارس كعوان

أستاذ التاريخ المعاصر - جامعة محمد لمين دباغين سطيف الجزائر

لعل من بين أخطر ما نتج عن الثورة الصناعية في أوروبا تلك الحركة التي قادتها عدد من الدول الأوروبية للتوسع واحتلال عدد من المناطق في قارتي إفريقيا وآسيا وغيرهما، ونجم عن ذلك نهب ثروات الشعوب في تلك القارات، واستعباد أهلها.

وقد انضمت إيطاليا لتلك الحركة الاستعمارية، واختارت لها مناطق من شرق إفريقيا لتنشئ فيها مستعمرات، سيطلق عليها فيما بعد «إمبراطورية شرق إفريقيا الإيطالية»، التي تشمل كلاً من إريتريا، وقسماً كبيراً من الصومال، والحبشة فيما بعد.

وقد بدأ الوجود الإيطالي في شرق إفريقيا عن طريق الشركات التجارية، التي حصلت من سلطان زنجبار- الذي كانت تدين له أغلب تلك المناطق- على امتيازات تجارية، سرعان ما تحولت إلى فرض حماية بالقوة ورفع العلم الإيطالي في تلك المناطق.

وكانت إيطاليا من الدول الأوروبية التي التحقت متأخرةً بركب الدول الاستعمارية، وذلك لتأخر وحدتها القومية التي لم تتم إلا عام ١٨٧٠م، كما أن إيطاليا قد عانت من منافسة عدد من الدول الأوروبية الأخرى، فمشروع احتلالها لتونس أفشله التدخل الفرنسي فيها سنة ١٨٨٢م، على الرغم من كثرة عدد الإيطاليين بها والقرب الجغرافي، كما أن الوجود الإنجليزي في مالطا القريبة من سواحلها جعل الساسة في إيطاليا يعملون على تعزيز العلاقات مع الإنجليز ليحصلوا منهم فيما بعد على ترضياتٍ في شرق القارة الإفريقية.

أولاً: دوافع الاحتلال الإيطالي:

١- البحث عن أسواق خارجية لتصريف فائض الإنتاج الصناعي:

عرفت إيطاليا الثورة الصناعية كغيرها من دول أوروبا الغربية، وكانت الصناعات الإيطالية تسير بتوجيه من كبار رجال المال.

وقبل الوحدة الإيطالية ظهرت الرغبة في إيجاد أسواق لمختلف المنتجات، حيث لم يكن في وسع الصناعات الجديدة أن تقنع بالأسواق المحدودة التي وجدتها داخل الدويلات الإيطالية[١].

سعت إيطاليا إلى تحويل المستعمرات إلى مناطق لترويج منتجاتها، واتخذت من تلك الطريق المؤدية للهند محطة لإنشاء مخازن للفحم، كما تم إنشاء عدد من المصانع[٢].

وفي منتصف القرن التاسع عشر؛ ظهرت صناعة الأنسجة القطنية والصوفية وإنتاج الحرير والصناعات التعدينية، وظهرت الصناعة الهيدروكربونية سنة ١٨٨٣م، وتطور ميناء جنوة بشكلٍ لافتٍ للنظر، تركزت هذه الصناعات في الغالب في القسم الشمالي من البلاد، وظل القسم الجنوبي فلاحياً وسكانه فقراء، مما ساهم في هجرتهم إلى مناطق في شمال إفريقيا، وبعدها إلى مستعمرات شرق إفريقيا[٣].

شكّلت الرغبة في الحصول على أسواقٍ

في إطار سياسة الخداع أجبرت إيطاليا سلطان زنجبار أن يُوقّع معها معاهدة سمحت مادتها الثانية للإيطاليين بامتيازات لا حصر لها

(١) بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، تعريب جلال يحيى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٨٢.

(٢) Capitaine André Pelenc: Les Italiens en Afrique (1880-1896) Paris, Librairie militaire de L.Baudoin, 1897, p.02.

(٣) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص٤٥٨.

لتصريف المنتجات الصناعية الإيطالية أحد الدوافع الرئيسية لإيطاليا للبحث عن مستعمرات لها في القارة الإفريقية، وبذلك يتم لها التمكن من اللحاق بمن سبقها من الأوروبيين، الذين حصلوا على ثروات مهمة من القارة الإفريقية وجعلوها سوقاً لترويج منتجاتهم[١].

وحاولت الحكومة الإيطالية تحويل مستعمرة إريتريا إلى سوق للبضائع الإيطالية، لكنها أخفقت في ذلك بسبب المنافسة الخارجية الشديدة، فقد كانت المنسوجات القطنية الإيطالية مثلاً تصل إليها بأسعار أعلى من المنسوجات الهندية أو اليابانية، ولذا كانت تجارة هذه المستعمرة لا تزيد عن ٢٥ بالمائة من تجارتها الخارجية، كما كان الميزان التجاري في غير صالح المستعمرة[٢].

٢- محاولة تغطية عجز الإنتاج الزراعي والمواد الأولية:

نتيجةً للثورة الصناعية، والزيادة الكبيرة في عدد السكان، فقد عانت إيطاليا من نقص حاد في بعض المواد الزراعية، وبعض المواد الأولية اللازمة لصناعاتها كالقطن، وبعض المزروعات المدارية.

في شهر أبريل ١٨٨٥م؛ وصل كلٌّ من القبطان تشيكي والقبطان فيكاروتا، والتقيا بسلطان زنجبار ليُبديا له رغبة بلادهما في تأسيس إحدى المنشآت التجارية، وتظاهرَا بأنهما مكلفان من الحكومة في بلادهما بدراسة الحالة التجارية والاقتصادية لعددٍ من المناطق التابعة للسلطان[٣].

وقد أُجريت التجارب لزراعة قصب السكر في تلك المستعمرات، لكن المساحات المخصصة لتلك الزراعة لم تكن كبيرة، مما أدى إلى محدودية إنتاجها، وكان من المنتظر أن تمدّ تلك المستعمرات إيطاليا بالمواد الخام كالقطن والمطاط، لكن إنتاج القطن لم يزد عن ١٤٤١٩ قنطار سنة ١٩٠٨م، وتناقص ليصل إلى ٣٠٠٠ قنطار سنة ١٩٣٥[٤].

وفي الحبشة، بعد احتلالها، بدأت الشركات الإيطالية في زراعة القمح وقصب السكر والمطاط والقطن، فنجحت زراعة القمح حتى سدّ الإنتاج حاجيات الاستهلاك المحلي، أما زراعة قصب السكر والمطاط والقطن؛ فقد أخفقت كلها كما حدث في إريتريا من قبل.

وانصرفت إيطاليا أثناء فترة احتلالها للحبشة للصناعة، فأنشأت عشر شركات صناعية، وسيطر الإيطاليون على غرفة التجارة بأديس أبابا، فمن بين ٣٥٠ عضواً كان هناك فقط ١٧ عضواً من الأحباش.

وكان الإيطاليون يأملون أن يجدوا في الحبشة الذهب والبترول، فتألفت لجان لدراسة البلاد وثرواتها وعمل تقارير عنها، ولكن جاءت تلك التقارير مخيبة لآمال الحكومة الإيطالية، التي لم تحصل على المواد الطبيعية الضرورية لصناعاتها[٥].

ولم تتعدّ المواد التي تُصدّرها مستعمرات شرق إفريقيا إلى إيطاليا: كميات ضئيلة من

(١) محمد عبد الغني سعودي: الجغرافيا والمشكلات الدولية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١م، ص٤٢٨.

(٢) زاهر رياض: استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٨١.

(٣) جلال يحيى: التنافس الدولي في شرق إفريقيا، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م، ص٢٤٥.

(٤) زاهر رياض: استعمار إفريقيا، ص٢٨١.

(٥) زاهر رياض: استعمار إفريقيا، ص (٢٨٨-٢٨٩).

الصّمغ والقُطن الخام والملح والأسماك والبُنّ وعدداً من الجمال[١].

٣- الرغبة في تهجير الفائض السكاني إلى المستوطنات الإفريقية:

عانت إيطاليا من زيادة سكانية كبيرة نتيجة تحسن الأوضاع المعيشية بعد الثورة الصناعية، وخصوصاً في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك ما جعلها تبحث عن مناطق تستوعب ذلك الفائض السكاني، فتوجّه عددٌ كبير من الإيطاليين إلى أمريكا الجنوبية، لكن تلك الهجرة لم تكن تخدم توجُّهات الحكومة آنذاك، ورأت أن إفريقيا أنسب لتُوَجَّه إليها تلك الهجرات لتعزيز الوجود العسكري بمستوطنات تغرسها في مناطق مختلفة، تكون على نموذج المستوطنات الإنجليزية في العالم الجديد.

وعند احتلال منطقة مصوع في إريتريا؛ هاجر إليها في بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر المئات من التجار وأصحاب الفنادق ووكلاء التجارة والسماسرة، والتحق بهم عدد من العمال ممّن كانوا مستقرين في مصر.

وفي التسعينيات من القرن التاسع عشر هاجرت عددٌ من الأسر الفلاحية، من جنوب إيطاليا إلى المستعمرة الجديدة في شرق إفريقيا، بتشجيع من الحكومة الإيطالية.

وفي سنة ١٩٠٥م بلغ عدد الأوروبيين في شرق إفريقيا: ٣٩٤٩ أوروبي، من بينهم ٢٣٣٣ إيطالي، كان منهم ٨٣٤ عسكري.

وارتفع عدد سكان المستعمرات الإيطالية بشكلٍ ملحوظ؛ بعد أشغال البناء والتعمير التي بدأت فيها الحكومة الإيطالية لتشجيع الاستيطان، فقد تمّ بناء القرى والمدن على النسق العمراني الإيطالي، وأقيمت المستشفيات والمدارس والمعاهد، وأنشئت شبكة من الطرق الحديثة وخط للسكك الحديدية.

كان الإيطاليون يعتبرون مستعمرة إريتريا بمثابة المستعمرة النموذجية الخاصة، ولهذا شجّعوا الاستيطان بها لتكون نموذجاً يُحتذى به لباقي المستعمرات الأخرى[٢].

الطريق الحديدي الإيطالي الوحيد الرابط بين مصوع وأسمرة:

مصدر الصورة: زاهر رياض: (استعمار إفريقيا)، ص٤٦٠.

٤- تعزيز المكانة الخارجية للدولة الإيطالية:

من بين الأسباب التي دفعت الإيطاليين للتحرك نحو القارة الإفريقية رغبتهم الملحة لتعزيز مكانة بلادهم دولياً، ومحاولة استعادة مجدها الروماني التليد، فقد كان الاحتلال أولاً وأخيراً مكسباً معنوياً كبيراً للشعب الإيطالي في تلك المرحلة.

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٨٢.

(٢) Gian–Luca Podesta: L›émigration italienne en Afrique orientale, annales de démographie historique, n°113, 2007, p.63.

تأثّـر الإيطاليون بالأفـكار القومية التي انتشرت آنذاك في كامل أرجاء أوروبا، ومنها أفكار الإيطالي جيوبرتي (١٨٠١-١٨٥٢) الذي كانـت نقطة انطلاق مذهبه الفلسـفي: حُبّ إيطاليا وطموحه في رؤيتهـا عظيمة، ويبرز هذا فـي رغبته في خلق إيطاليا الخيالية في الماضي والحاضر معاً، وهو يُشيد في كتاباته بإيطاليا الرومانية ومآثرها[١].

وبعد تحقيق الوحـدة القومية الإيطالية؛ سـعت الحكومـات الإيطالية إلى اسـتغلال ذلك الشـعور القومي لإرضاء الرأي العام في البلاد، وتلبيةً لغروره بأن له مستعمرات كسائر البلدان الأوروبية.

واعتقدت إيطاليا بأن عمليات التوسع الاستعماري ستُؤدي إلى تتويج نضوج الفكر القومي وتعزيز وحدة البلاد الداخليـة، وكانت قد أصابتها حمّى الحصول على مسـتعمرات في إفريقيا، وأن تحصل هي كذلك على نصيبها في عملية اسـتغلال البلدان الضعيفة، ولكنها لم تجد أمامها سوى مكانٍ صغير على ساحل البحر الأحمر بسبب وصولها متأخرة[٢].

ثانياً: المصاعب:

١- السياسة الاستعمارية الإيطالية القائمة على الخداع:

فـي اعتقادنـا أن السياسـة الإيطالية في شـرق إفريقيا، القائمة على الخداع في التعامل مع شـعوب القارة، كانت سبباً رئيسياً وراء فشل التوسع الإيطالي.

وقد بدأ الحضور الإيطالي في القارة قبل الوحدة الإيطالية، وبالضبط سنة ١٨٦٩م، حين قامت الشركة العامة للملاحة المسماة فلوريو روباتينو Rubattino Florio بشراء جزيرة درماقيا من سلطان راحيتا Raheita، وذلك عن طريـق أحد اللازاريين المدعومين من الحكومة، وهو البروفيسـور غيوسابي سابيتو Sapeto Giuseppe، وبعد سـنة واحدة تم رفع العلم الإيطالي في تلك المنطقة.

وفـي ١٥ مارس ١٨٨٠م؛ تمكّن سـابيتو من توقيـع اتفاقية مـع كلٍّ من سـلاطين الدناقل ومرقـاب، وهم على التوالي: إبراهيم، وحسـن، وبموجـب تلك الاتفاقية حصـل على ملكية كل جزر خليج عصب وقطاع من السـاحل بين خليج بوجا ورأس سانتار، ومن الساحل بين رأس لوماح ورأس درماح بعمق خمسة أميال، وأخيراً جزيرة سـينا بار، وكل ذلك مقابـل مبلغ قدره ٢٣ ألف وخمسـمائة من عملة: تالـر ماريا تيريزا، وهي العملة التي كانت سائدةً في الأراضي الإفريقية الواقعـة علـى البحر الأحمر، وهو ما يسـاوي آنذاك ٨٢ ألف و٢٥٠ فرنك فرنسي[٣].

واتبعت الشركات الملاحية أسلوب الخداع مع سلاطين شرق إفريقيا وحكامها، فهي في البداية كانت تُغدق عليهم الهدايا مُوهمةً إيّاهم أن نشاطها تجاريٌّ بحت، ثم لا تلبث بعد فترة قليلة أن تُظهر نياتها الاسـتعمارية والتوسعية برفع علم إيطاليا وتسليم ممتلكاتها للحكومة الإيطالية، وهو ما جعلهـا تفقد ثقة الأهالي الذين أبدوا امتعاضهم من تلك السياسة[٤].

وفي إطار سياسـة الخـداع هذه أجبرت إيطاليا سلطان زنجبار على أن يُوقّع معها في

(١) نور الدين حاطوم: تاريخ الحركات القومية، ج٢: الحرية والقومية، دار الفكر الحديث، بيروت، ط١، ١٩٦٩م، ص (١٣٢-١٣٣).

(٢) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص٤٥٩.

(٣) Capitaine André Pelenc: Les Italiens en Afrique (1880-1896), Paris, Librairie militaire de L.Baudoin, 1897, p.02.

(٤) محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٤٤.

٢٨ ماي ١٨٨٥م معاهدة سمحت مادتها الثانية للإيطاليين بامتيـــازات لا حصر لها، فلم يعد بإمكان السلطان نفسه إخراجهم من الأراضي والمحلات التجارية والمنازل التي اســـتولوا عليها، كما تنازل السلطان عن حقه في متابعة الإيطاليين لأي جُرم يرتكبونه، وصار القنصل الإيطالي هو الآمر الناهي في البلاد.

وكانت السلطات الإيطالية تعتمد أيضاً على تفسيرها هي وحدها لنصوص المعاهدات مع بعض الحُكّام من شـــرق إفريقيا، فتتفق معهم على منح امتيازات تجارية ثم تُوهِمُ الرأي العام الإيطالي والأوروبي فيما بعد أنها حصلت على تنازلات سياسية وحق فرض حمايتها على تلك المناطق، وحاولت الســـلطات الإيطالية خداع إمبراطور الحبشـــة بمثل هذه السياسة بعدما حصلـــت منه على بعض المكاســـب التجارية التـــي أرادت تحويلها إلى فرض حماية بالقوة على بلاده، فكان أن تلقت هزيمة ساحقة في «عدوة»- كما سنرى لاحقاً[1].

خريطة المستعمرات الإيطالية في شرق إفريقيا:

المصدر: https://picclick.it

(١) جلال يحيى: التنافس الدولي في شرق إفريقيا، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م، ص٢٤٥.

مارست إيطاليا في تلك المستعمرات نفس السياسة الاستعمارية التي مارستها فرنسا وبريطانيا في مستعمراتهما

٢- بعد المسافة بين إيطاليا ومستعمراتها:

عانت إيطاليا من بُعد مســـتعمراتها عنها، فالمســـافة بين إيطاليا وأقرب مستعمرة في شـــرق إفريقيا تتجـــاوز ٣٨٠٠ كلم، عبر ممر قناة السويس، وهذا ما أثّر على سير عمليات التوسُّـــع، وكذا تزويد المستوطنين الإيطاليين بما يحتاجون إليه من مُؤن، ولعلّ هذا السبب هو من بين الأسباب التي جعلت إيطاليا تفكر في احتـــلال ليبيا؛ لتجعل منهـــا طريقاً نحو مستعمراتها في شرق إفريقيا.

وقد أثّر بُعـــد المســـتعمرات أيضاً على عمليات الإمداد العسكري في حالة قيام ثورات في تلك المستعمرات، وظهر ذلك جلياً خلال الحرب العالمية الثانية، مما عجل بســـقوط تلك المســـتعمرات في يد القوات البريطانية وإنهاء الوجود الإيطالي في شرق إفريقيا.

٣- فقر المستعمرات وطبيعتها القاسية:

كان مـــن نتائـــج تأخر إيطاليـــا عن ركب التوســـع الاســـتعماري، مقارنةً بباقي الدول الأوروبيـــة، أن حصلـــت على مناطـــق فقيرة في شـــرق إفريقيا، فالمناطـــق الممتدة على الشـــريط الصحراوي بين الهضبة الشمالية للحبشة والصومال الفرنسي تكاد تكون عديمة

الفائـــدة تماماً، كما أن منـــاخ منطقة مصوع حال دون اســـتيطان الإيطاليين، ولذلك فقد تركزت مراكز الاســـتيطان في منطقة أسمرة وما جاورها.

ونتيجـــةً لهـــذا؛ فقـــد فكـــرت الحكومة الإيطاليـــة في مد خطـــوط حديدية، فبدأت بإنشاء خط يربط مصوع بأسمرة على مسافة ١٢٠ كلم، وبدأت الأشغال سنة ١٨٨٨م، ولكنها لم تنته إلا ســـنة ١٩١١م، وذلك كله يفسر لنا ما كانت تعانيه إيطاليا في تلك المستعمرات، حيث إن ذلك الخط يربـــط بين منطقة على مســـتوى البحر بمناطق يفوق ارتفاعها ٢٤٠٠ كلم عنه[١].

وكان الألمان سباقين لاستكشاف مناطق في شـــرق إفريقيا، لكن فقر تلك المناطق من الناحية الاقتصادية جعل حكومة بلادهم تغض النظر عنها، وتوفر مجهوداتها لمناطق أخرى أكثر غنى[٢].

٤- المقاومات المحلية:

واجـــه الإيطاليـــون منذ بدايـــة وجودهم بشـــرق القـــارة الإفريقية مقاومـــات محلية ضارية، عطلت عمليات توسعهم نحو المناطق الداخليـــة، ففي ســـنة ١٨٨٧م- مثلاً- أعلن الوزيـــر الإيطالي روبيلان وبـــكل ثقةٍ ضرورة عدم إعطاء قيمة كبيرة لمن ســـماهم «رجال العصابـــات»، وهـــو يقصد بذلـــك المقاومة الشرســـة التي واجهتهم في مصوع، فكانت النتيجة كارثة عسكرية للإيطاليين، نتج عنها إبـــادة طابور عســـكري بكامله، يتشـــكل من أربعمائة رجل، في ممر دوغالي[٣].

وعلى الرغـــم من توقيع إيطاليا معاهدات مع سلطان زنجبار، الذي كانت تدين له كل تلك المناطق بالولاء، فإن الأهالي وشـــيوخ القبائل تفطنوا باكراً إلى خطورة الوجود الإيطالي في أراضيهم، وهددوا الســـلطان بعدم الاعتراف بإمامتـــه إن اســـتمر في الخضـــوع لرغبات الإيطاليين[٤].

ولعل من أكبر المقاومات الشـــعبية التي شـــهدتها منطقة الصومال تلـــك التي عُرفت بـ«مقاومة الدراويـــش»، التي قادتها الطريقة الصالحيـــة بزعامة الســـيد «محمد بن عبد الله حســـن»، التـــي أعلنها فـــي البداية ضد الوجـــود البريطاني في الصومـــال، وتدخلت إيطاليـــا كوســـيط بين الطرفين، واســـتطاع الدراويـــش إحـــراز عدة انتصـــارات أجبرت الســـلطات البريطانية على الإذعان لمطالبها ســـنة ١٩٠٥م، وكانت إيطاليا تترقب كل ذلك بحذرٍ شديد، فأي قوة للدراويش تعني تهديداً لوجودها في المنطقـــة، خاصةً أن الدراويش لم يكونوا يفرقون بيـــن الأوروبيين، ويعتبرون محاربتهم فرضاً وواجباً دينياً[٥].

وفي الوقت الـــذي كانت فيه المفاوضات تـــدور بين الدراويـــش والبريطانيين؛ انتهزت إيطاليـــا الفرصة وأرســـلت قائداً عســـكرياً هـــو «مارتيني»، لتولي القيادة العســـكرية في مقديشـــو وقطع الطريق أمام الدراويش، ثم شـــنت هجوماً عبـــر منطقـــة ميجرتين على

(١) Philippe Conrad: L›aventure coloniale italienne et son échec, in Clio, Aout 2002, p.03.

(٢) يحيى بوعزيز: الاستعمار الأوروبي الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٧٣.

(٣) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص٤٦١.

(٤) جلال يحيى: التنافس الدولي، ص (٢٢٨-٢٢٩).

(٥) عبد الله عبد الرازق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، ١٩٨٩م، عالم المعرفة الكويت، ص١٩٥.

الدراويش، لكنها مُنيت بالهزيمة في ١٥ أغسطس ١٩١١م في موقعة هبرهنيل.

٥- العجز المالي للحكومة الإيطالية وعدم قدرتها على الإنفاق على المستعمرات:

كانت عمليات التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا مكلفة جداً لخزينة الحكومية الإيطالية، فقد كانت الخزينة الإيطالية أفقر من أن تتحمل مصاريف الإنفاق على مستعمرات بعيدة عنها، وفقيرة حيث كان نصفها الشمالي كله مناطق جافة وقاحلة، والنصف الجنوبي- الذي به أنهار جوبا والوبي وشيللي- ليس واسعاً بما فيه الكفاية للاستثمار فيه، فقررت الحكومة الإيطالية تأجير تلك المناطق لشركة تجارية إيطالية هي شركة فيلونارديي، لكن الحكومة الإيطالية كانت تنفق ٣٠٠ ألف ليرة سنوياً أجوراً للعسكريين والموظفين في مستعمراتها بشرق إفريقيا.

وكانت الحكومة الإيطالية تأمل في تطور النشاط الاستيطاني ونمو المستوطنات تجارياً حتى تعوض مصاريفها، لكن ذلك لم يحدث، لأن عدد المهاجرين الإيطاليين كان أقل مما تطمح إليه بسبب المناخ وبُعد المسافة.

ثالثاً: النتائج:

١- الهزائم العسكرية في شرق إفريقيا:

تعرّض الوجود الإيطالي في شرق إفريقيا منذ البداية لنكسات كبيرة، فقد كان إسناد أمر تسيير المستوطنات لشركة تجارية خطأ فادحاً من جانب الحكومة الإيطالية، إذ إن تلك الشركة كانت أضعف من أن تدافع عن نفسها أمام هجمات الأهالي المتكررة، حيث لاحظ هؤلاء البطء الشديد لوصول أي نجدة من إيطاليا[١].

وكانت أكبر هزيمة عسكرية تتلقاها القوات الإيطالية في شرق إفريقيا على يد الأحباش في معركة «عدوة» الشهيرة، حيث تدخل الإيطاليون في الشؤون الداخلية للحبشة، وحاولوا تحريض عدد من الأمراء على الملك منليك، لكن هذا الأخير استطاع توحيد البلاد، وتميز بالذكاء والقسوة، وأصبح عدواً لإيطاليا، وشنت قواته هجمات على الإيطاليين في ديسمبر ١٨٩٥م، وتم القضاء على ٢٠٠٠ جندي إيطالي بقيادة توسيللي، واضطر العقيد جاليانو أن يستسلم مع ١٤٠٠ جندي في شهر يناير ١٨٩٦م. وفي شهر مارس ١٨٩٦م بدأت القوات الإيطالية هجوماً على الأحباش، لكن هؤلاء حضّروا لهم مفاجأة غير سارة، وسُحقت القوات الإيطالية في موقعة «عدوة» الشهيرة، فقُتل فيها نصف عدد الضباط الإيطاليين، وتم قتل جنرالين من أصل أربعة جنرالات، وأُسر جنرال ثالث مع ما يقرب من ٥٠٠٠ جندي، واستولى الأحباش على كل المدفعية الإيطالية، وكانت تلك أقوى هزيمة عسكرية تتلقاها القوات الإيطالية في إفريقيا[٢].

٢- عدم نجاح مشاريع الاستيطان:

على الرغم من أن إيطاليا قد بذلت جهوداً حثيثة لتشجيع الاستيطان في شرق إفريقيا، فإن ذلك الاستيطان لم يتوسع كما كان مخططاً له، وكاد ينحصر في منطقة أسمرة وما حولها.

وقد هاجر عددٌ من الإيطاليين إلى تلك المنطقة للعمل في مشروع الخط الحديدي بعد أن رفض الأهالي العمل به، فكان من

---

(١) زاهر رياض: استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٧٥.

(٢) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا، ص٤٨٣.

أثر ذلك أن عجزت المحاصيل الزراعية عن أن تسد حاجتهم، ولذا ظل استعمار منطقة إريتريا مجرد مشروع حكومي لم يطبق كما يأمل الإيطاليون على أرض الواقع، ومع ذلك ظلت الهجرات تتوالى من أجل خلق نوع من «الوعي الاستعماري الإفريقي» لدى هؤلاء الإيطاليين، لكن الاستيطان الإيطالي فشل في شرق إفريقيا، فقد خاب أمل الحكومة في زيادة الهجرات، كما أنها لم تنجح في تطوير التجارة وتقدم البحرية بالمنطقة التي احتلتها، وظلت المستعمرات عبئاً على الحكومة الإيطالية زمناً طويلاً[١].

٣- التنافس مع الدول الكبرى:

منذ اليوم الأول للوجود الإيطالي بشرق إفريقيا؛ كان على إيطاليا التعامل مع وجود قوتين استعماريتين أوروبيتين، هما: بريطانيا، وألمانيا.

والغريب أن بريطانيا قد شجّعت إيطاليا على التوسع في شرق إفريقيا، بل إنها أقنعت عدداً من الدول الأخرى بالاعتراف بوجودها في شرق إفريقيا.

وجاء في مقال فرنسي صادر سنة ١٨٩٧م: أن بريطانيا كانت ترغب أن تلعب إيطاليا في إريتريا دور «الكلب الراعي» كما قامت به بلجيكا في منطقة أعالي النيل وبحر الغزال، وفسرت جريدة التايمز اللندنية الموقف البريطاني بروابط الصداقة التي تربط بين إيطاليا وبريطانيا، وأن هذه الأخيرة لا يزعجها أبداً وجود الإيطاليين بمنطقة إريتريا[٢].

ونشير إلى أن قسماً من منطقة شرق إفريقيا كان خاضعاً للإدارة المصرية قبل أن تفرض بريطانيا حمايتها على مصر، ففي أوائل نوفمبر ١٨٦٧م؛ غادر أسطول مصري بقيادة جمالي بك إلى منطقة شرق إفريقيا ببعض سواحل البحر الأحمر، وتم تعيين عبد القادر باشا حلمي حاكماً على سواحل إفريقيا الشرقية.

وأبدت بريطانيا رفضها للوجود المصري في المنطقة، وأبلغ حاكم عدن الإنجليزي احتجاجه إلى جمالي بك في أبريل سنة ١٨٧٠م، فكتب شريف باشا وزير خارجية مصر في أول يونيو ١٨٧٠م إلى قنصل بريطانيا يقول: إن تلك الأراضي الممتدة من مصوع إلى باب المندب تتمتع بالتبعية للدولة العثمانية، وإنها ضمن تنازل الباب العالي عن مديريات مصوع وسواكن وملحقاتها، وإن حقوق مصر على هذه المناطق ثابتة لا شك فيها[٣].

وعليه؛ فقد سعت بريطانيا إلى تشجيع الإيطاليين للقدوم إلى تلك المناطق لاحتلالها، للتخلص من الوجود المصري الذي لا يناسب خططها الاستعمارية في إفريقيا.

وكانت أهداف إيطاليا قد تركزت على نقطتين قريبتين من عصب، هما: بيلول وعيد، وتقربت من بريطانيا للحصول على رضاها في عمليات التوسع شرق إفريقيا.

وأما السلطات المصرية؛ فقد كانت أعجز من أن تدافع عن تلك المناطق البعيدة عنها، وقد رأى القنصل العام البريطاني في مصر

(١) Gian –Luca Podesta: L›émigration italienne en Afrique orientale, annales de démographie historique, n°113, 2007, p.63.

(٢) Anonyme: La politique africaine de l›Italie, bulletin du comité de l›Afrique française, année 1897, p.181.

(٣) محمد صبري: مصر في إفريقيا الشرقية: هرر وزيلع وبربرة، مطبعة مصر ومكتبتها، ١٩٣٩م، ص (١٦-١٧).

أن حكومة الخديوي لن تعترض على الوجود الإيطالي في شرق إفريقيا إن قامت إيطاليا باتباع طريقة الإنجليز نفسها، أي أن تحتل الأرض وتترك للمصريين حامية صغيرة، مع ترك العلم العثماني أيضاً يرفرف في تلك الناحية.

وسنجد أنه حتى تلك المظاهر الشكلية للسيادة المصرية ستختفي، خصوصاً أن مصر نفسها لن تعود دولة ذات سيادة بدءاً من عام ١٨٨٢م[١].

وهكذا؛ فإن بريطانيا لم تشكل أبداً عائقاً أمام التوسعات الإيطالية في شرق القارة، لكن هذا لا يعني أنها تركت الإيطاليين يتصرفون في المنطقة كما يحلو لهم، فهي كانت تتدخل حين ترى أن مصالحها مهددة، وأن التوسعات الإيطالية بدأت تشكل خطراً على مناطق نفوذها، فقد أظهرت الصحف البريطانية عدم رضاها عن السياسة الإيطالية سنة ١٨٨٦م، وذلك بسبب رغبة إيطاليا في السيطرة الكلية على منطقة قسمايو، ونبهت صحيفة التايمز اللندنية في مقالاتها الصادرة يومي ٦ و٩ نوفمبر من نفس السنة على الأهمية الاستراتيجية لميناء قسمايو، مما جعل القنصل البريطاني العام في شرق إفريقيا يصرح بأن السلطان رفض إعطاء إيطاليا منطقة قسمايو.

وهكذا كانت بريطانيا- على الرغم من تساهلها مع إيطاليا- تتدخل في عدد من المسائل التي تهدد مصالحها التجارية في شرق إفريقيا.

ولعل المنافسة الألمانية كانت الأخطر بالنسبة للإيطاليين، فالألمان وصلوا قبل الإيطاليين، ولهم علاقات تجارية قوية مع سلطان زنجبار، واستطاعوا السيطرة على مستعمرات غنية.

وقد عطل ذلك التنافس الحكومة الإيطالية في عمليات التوسع في شرق إفريقيا، وجعل نفوذهم ينحصر في مناطق محدودة وضيقة مقارنةً بالألمان والإنجليز.

٤- الانسحاب الإيطالي من شرق إفريقيا بعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية:

مع تولي موسوليني الحكم في إيطاليا أعيد إحياء مشروع ضم الحبشة للممتلكات الإيطالية، وكانت إيطاليا تتربص بالأحباش وتنتظر الفرصة للانقضاض عليهم، وتحقق لها ذلك في يوم ٠٣ أكتوبر ١٩٣٥م، حيث هاجم مائة ألف جندي من القوات الإيطالية الحبشة انطلاقاً من الأراضي الإريترية، وذلك تحت قيادة المارشال إميليو دي بونو، ودعمتها قوة إيطالية صغيرة من الصومال بقيادة الجنرال رودولفو غراتزياني، وبعد مقاومة ضارية سقطت الحبشة بيد الجيش الإيطالي في بداية مارس ١٩٣٦م، وفَرّ ملكها هيلا سيلاسي ليستقر في لندن، وقد بلغ عدد القتلى حوالي ٩٩٩٩ جندي إثيوبي، في حين قُدّرت الخسائر الإيطالية بفقدان ١٩ ضابط و١١٩ جندي إيطالي و٩٩١ جندي إرتيري، حسبما ذكره الجنرال بادوقليو في مذكرته التي نشرها حينها[٢].

ومنذ شهر يونيو ١٩٣٦م؛ تم توحيد كلٍّ من مستعمرات إريتريا والصومال وإثيوبيا في

(١) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص٣٦١.

(٢) Le marechal. Badoglio: Commentaire sur la compagne d'Ethiopie préface de Benito Mussolinitra de l›italien par: Juliette Bertrand, .Paris, Ed Bernard Grasset, 1937, p.204

تقسيم إداري جديد، عُرف باسم «إفريقيا الشرقية الإيطالية»، وفي شهر ماي ١٩٣٧م تم تعيين وزير إفريقيا الإيطالية ليشغل محل وزير المستعمرات[١].

وحين انطلقت الحرب العالمية الثانية كانت المستعمرات في شرق إفريقيا في حالة استنفار قصوى، حيث عمدت السلطات الإيطالية إلى نشر الدعاية التي تحرض شعوب تلك المنطقة ضد الفرنسيين والإنجليز وتبين خطر التعامل معهم، كما أن إيطاليا استطاعت تجنيد ٢٥٠ ألف شخص من تلك المستعمرات، أغلبهم من إريتريا، ونذكر أن إيطاليا دخلت الحرب رسمياً في ١٠ يونيو ١٩٤٠م، وقطعت الطريق نحو رأس الرجاء الصالح أمام البريطانيين، وصارت شرق إفريقيا بمثابة قواعد متقدمة للإيطاليين في البحر الأحمر[٢].

وتطورت الأحداث في شرق إفريقيا، حيث هاجمت القوات الإيطالية الصومال البريطاني وتقدمت في مناطق كثيرة من المستعمرات البريطانية، لكن بريطانيا لجأت إلى الاستعانة بالأحباش، فقررت إعادة الإمبراطور هيلا سيلاسي إلى الحكم، حيث كان منفياً في بريطانيا، ووصل الإمبراطور إلى الحبشة لمحاربة الإيطاليين، ودعمته بريطانيا بالأسلحة والعتاد، وحققت قوات الأحباش انتصارات على القوات الإيطالية[٣].

وبالموازاة مع ذلك التقدم من جانب الأحباش؛ أحرزت القوات البريطانية بمساعدة سلاح الطيران انتصارات كبرى على القوات الإيطالية، وأجبرتها على الانسحاب من عدد من المواقع، وتعاون أهالي الصومال وإريتريا مع القوات البريطانية لإخراج الإيطاليين من بلادهم، وتمكنت بريطانيا من تحقيق أهدافها في طرد الإيطاليين من شرق إفريقيا بعدما صار وجودهم فيها يهدد وجودهم في مستعمرات ملاصقة لها في المنطقة، وخضعت المناطق المحررة للحكم العسكري البريطاني في انتظار تحديد مصيرها لاحقاً[٤].

٥- مصير المستعمرات الإيطالية بعد خروج الإيطاليين منها:

لم تحصل المستعمرات الإيطالية في شرق إفريقيا على استقلالها بعد خروج الإيطاليين منها نهائياً، فقد خضعت- كما قلنا- للحكم العسكري البريطاني، وأخذ الحاكم العسكري البريطاني يمارس مهام وصلاحيات الحاكم الإيطالي السابق، وحتى شهر أغسطس ١٩٤١م حمل ذلك الحاكم اسم «نائب الضابط السياسي الأعلى»، وبقي يُسمى حتى مارس ١٩٤٣م بـ«الحاكم العسكري»، ثم أطلق عليه بعدها لقب «الحاكم»، وتغير دوره ووضعه بعد انتهاء الحرب، إذ أصبح مدنياً أكثر منه عسكرياً.

لم ترد بريطانيا الخروج من المستعمرات الإيطالية وماطلت في ذلك كثيراً، حتى إن

(١) Philippe Conrad: L›aventure coloniale italienne et son échec, in Clio, Aout 2002, p.06.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مشكلة قناة السويس (١٨٥٤-١٩٥٨م)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٧٠.

(٣) وليد محمد جرادات: الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٦م، ص٢٢١.

(٤) أحمد برخت ماح: وثائق عن الصومال والحبشة وإريتريا، شركة الطوبجي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٢م، ص (٢٥١-٢٥٢).

بعض القضايا عُرضت على الأمم المتحدة لحلها كقضية إريتريا التي كانت بريطانيا متحمسة لضمها لإثيوبيا، وهو ما سيحدث فعلياً سنة ١٩٥١م، متجاهلةً الفوارق اللغوية والدينية بين البلدين[١].

وأما الصومال، الذي كان تحت السيطرة الإيطالية، فقد خضع هو الآخر للسيطرة البريطانية، وفي أكتوبر ١٩٤٩م اتفق وزيرَا خارجية إيطاليا وبريطانيا على وضع مشروع وعرضه على الأمم المتحدة، فحواه عودةً إيطاليا إلى الصومال دون قيدٍ أو شرط، ولكن الصوماليين رفضوا ذلك، وحدثت مظاهرات ضخمة في مقديشو، ولكن الأمم المتحدة أقرت بالأغلبية وضع الصومال تحت الوصاية الإيطالية من جديد، على الرغم من أن الظروف قد تغيرت ولم يعد الإيطاليون مرغوباً فيهم في البلاد، التي تطور فيها الوعي السياسي بشكلٍ ملحوظ، مما أدى إلى استقلال البلاد بشكلٍ تام سنة ١٩٦٠م[٢].

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة؛ نستنتج أن الوجود الإيطالي في شرق إفريقيا قد تحكمت فيه عددٌ من العوامل، أهمها رغبة إيطاليا في أن يكون لها كغيرها من القوى الاستعمارية موطئ قدم في شرق إفريقيا، تُظهر فيه قوتها العسكرية وتحاول استثماره تجارياً.

واستطاعت إيطاليا السيطرة على عدد من المناطق في شرق إفريقيا، بدءاً بميناء عصب في سواحل إريتريا الذي حصلت عليه بموجب معاهدة تجارية، لتوسع نفوذها للمناطق الداخلية وكل الساحل المطل على البحر الاحمر، مستغلةً حالة الضعف والانقسام الداخلي في تلك المناطق.

وحصلت إيطاليا على موافقة عدد من الدول الاستعمارية كبريطانيا وألمانيا بعد تقسيم مناطق نفوذ كل دولة، ومارست إيطاليا في تلك المستعمرات نفس السياسة الاستعمارية التي مارستها فرنسا وبريطانيا في مستعمراتهما، فقد استولت على الأراضي، وطردت سكانها الأصليين، لتمنحها للمستوطنين والشركات التجارية المختلفة.

ولكن إيطاليا اعترضتها جملة من المصاعب، لعل أهمها بُعد المستعمرات عنها جغرافياً، والمقاومات العنيفة التي واجهتها، والتي أجبرتها على التراجع عن عددٍ من المناطق، قبل أن تُجبر أواخر الحرب العالمية الثانية على الانسحاب نهائياً من شرق إفريقيا، لكنهم عادوا كأوصياء على الصومال بقرار من الأمم المتحدة، وهي الوصاية التي رفضتها أغلب القوى السياسية في الصومال، وأجبرت إيطاليا مرّةً أخرى على الخروج نهائياً سنة ١٩٦٠م، وأما إريتريا فقد تقرر ضمها إلى إثيوبيا في اتحاد فيدرالي؛ على الرغم من الرفض الشعبي الكبير ■

(١) ج.ك.ن. تريفاسكيس: إريتريا مستعمرة في مرحلة الانتقال (١٩٤١-١٩٤٥م)، ترجمة: جوزف صفير، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٧م، ص (٥٠-٥١).

(٢) محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص (٧٢، ٩٤).